الفصل الثاني
صحبة سيد قطب القرآن الكريم

صلته بالقرآن من الطفولة إلى الاستشهاد :

لقد صاحب سيد قطب القرآن الكريم منذ أن كان طفلا يدرج في رحاب القرية حين كان يسمع القارئ ، يقرؤه في شهر رمضان المبارك ، فتنساب في أعماقه حلاوة موسيقاه وهو لم يع بعد ما يدور حوله ، ولم يرق فهمه بعد إلى فهم إعجازه .

وقد نما حبه للقرآن ، بدون شك ، حين حفظه وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره فأصبحت كلماته تتردد بين جوانحه ، وتزداد إشعاعا في خاطره عبر الأيام إلى أن أخذ القرآن يشرق بقوة جذابة في كيانه ، فيفيض عليه ضياء غامرا .

إن خير ما يصور هذه المرحلة من بدايته الأولى في صحبة كلام الله تعالى ما كتبه في إهدائه كتاب : « التصوير الفني في القرآن الكريم» لأمه حين يقول : «إليك يا أماه أرفع هذا الكتاب ، لطالما تسمعت من وراء «الشيش» في القرية للقراء يرتلون في دارنا القرآن طوال شهر رمضان وأنا معك ـ أحاول أن ألغو كالأطفال ـ فتردني منك إشارة حازمة وهمسة حاسمة فأنصت معك إلى الترتيل ، وتشرب نفسي موسيقاه وإن لم أفهم بعد مبناه [1] .

فلا غرابة ، إذا ، أن يظهر اهتمام سيد ~ بالدراسات القرآنية مبكرة ، وذلك عام ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩ عندما نشر بمجلة «المقتطف» بحثه الجمالي الطريف «التصوير الفني في القرآن» ، ونشره فيما بعد في كتاب ، وحكى لنا في فصل تحت عنوان : «لقد وجدت القرآن» قصته مع القرآن بقلمه الجميل ، وذلك حين يقول : «لهذا الكتاب في نفسي قصة ، ولقد كان من حقي أن أحتفظ بهذه القصة لنفسي ، ما ظل هذا

---

(١) ص : ٥ .

الكتاب خاطرا في ضميري ، وأما وقد أخذ طريقه إلى المطبعة ، فإن قصته لم تعد ملكا لي ولا خاصة بي .

لقد قرأت القرآن وأنا طفل صغير لا ترقى مداركي إلى آفاق معانيه ، ولا يحيط فهمي بجليل أغراضه ، ولكنني كنت أجد في نفسي منه شيئا» [١] .

ولا غرابة أيضا ، إذا ، أن تتلو هذه الدراسة الفريدة دراسة جمالية تحت عنوان : «مشاهد القيامة في القرآن» ، ويستهله ببيان يعرض فيه ما تتميز به طريقة التعبير القرآني ، ويصرح بأن عزمه صح على أن يصدر حلقات من الدراسات القرآنية تؤلف «مكتبة القرآن الجديدة» وتتمثل في «القصة بين التوراة والقرآن» و«المنطق الوجداني في القرآن» و«أساليب العرض الفنية في القرآن» .

ثم يختم الحديث عن الغرض من تأليف الكتاب بقوله : « فهدفي هنا هدف فني خالص محض ، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل ، فإذا التقت في النهاية براعة الفن بقداسة الدين فتلك نتيجة لم أقصد إليها ولم أتأثر بها ، إنما هي خاصة كامنة في طبيعة هذا القرآن تلتقي عندها دروب البحث في النهاية ، ولو لم يحسب السالك حسابها في الطريق» [٢] .

ومما لا ريب فيه أن كتابيه «التصوير الفني في القرآن» و« مشاهد القيامة في القرآن» يبرزان لنا مدى القدرات الفكرية والفنية التي عالج بها سيد قطب المباحث الجمالية في القرآن الكريم ، ومدى مهارته في هاتين الدراستين الجماليتين إلى حد جعل العملين فريدين في مجال البحث الجمالي يشيران بفيض من الخير ينتظر «سيدا» في مضمار التفسير سيزهر ، ويعم خصبه آفاق العالم الاسلامي .

وبفضل صدور دراسة « التصوير الفني في القرآن» أخذ التفسير البياني يشق

---

(١) ص ٧ ، وانظر ص ٨ وما بعدها .

(٢) ص١٢ .

طريقه ، وتتضح بعض معالمه برغم أن الدكتورة بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن قد ذهبت غلى الزعم في مقدمة كتابها «التفسير البياني» من أن شيخها أمين الخولي هو أول من تناول القرآن الكريم «نصا أدبيا على منهج أصله وتلقاه عنه تلامذته وأنا منهم ولكن التفسير الأدبي اليوم ظل حتى اليوم محصورا في نطاق التفسير دون أن ينتقل إلى مجال الدرس الأدبي مع المعلقات والمفضليات والنقائض والمقامات والرسائل والاامالي وهيهات أن يرقى إليه نص منها» [١] .

وتذهب إلى الزعم أيضا بأنه ليس هناك محاولة أصيلة لبيان البلاغة القرآنية إلا ما كان من محاولة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ~ في إعجاز القرآن ، وإلا ماكان من دراستها القرآن الكريم نصا أدبيا تطبيقا للمنهج الذي تلقته [٢] .

نعم ذهبت الدكتورة إلى كل ذلك متناسية عمل الأستاذ سيد قطب «التصوير الفني في القرآن» الذي صدر سنة ١٩٣٩ يعني قبل أن تبدأ هي دراستها في هذا الميدان بسنوات ، وتلك والله جناية على التاريخ ما بعدها من جناية ، الحافز إليها الأثرة ولو على حساب الحقيقة قصد حيازة الريادة في هذا المجال ، والأمر لا يخفى أبدا على من له أدنى إلمام بتاريخ الدراسات الجمالية في ثقافتناالاسلامية المعاصرة :

إذا لم يكن للمرء بصيرة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر ، أقول : بفضل صدور دراسة «التصوير الفني في القرآن» أخذ التفسير البياني يشق طريقه نحو الوضوح ، وتشرق معالمه ، وتحققت ما بشرت به هذه الدراسة الفريدة من مستقبل حافل لسيد قطب في مجال الدراسة القرآنية البيانية ، إذ أتحف عالم التفسير بتفسيره النفيس «في ظلال القرآن» مدفوعا بفيض من استرواح قدسي وأنس إيماني ، وذوق فني مرهف وإحساس أدبي شفيف يقول في المقدمة : « ومن ثم عشت في ظلال

(١) انظر مقدمة التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج ١ ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) انظر المقدمة السالفة الذكر ، ص ١٤ .

القرآن هادئ النفس مطمئن السريرة قرير الضمير»[١].

مراحل تأليف «في ظلال القرآن»:

يرجع تاريخ كتابة «الظلال» إلى سنة ١٣٧٢هـ موافق ١٩٥٢م حين كانت تصدر مجلة «المسلمون» التي كان يشرف عليها الأستاذ سعيد رمضان، وكان الشهيد يمد هذه المجلة بحديث قار تحت عنوان «في ظلال القرآن»، وقد حاز هذا الحديث إعجاب القراء فتهاطلت رسائل على المجلة تطلب منها أن يستمر حديث سيد حتى يشمل القرآن كله.

وبادرت مكتبة دار إحياء الكتب العربية تطلب من الشهيد التعاقد معه أن يهيئ لها كل شهر جزءا من «ظلال القرآن»، واستطاع ما بين فترة أكتوبر ١٩٥٢ أن ينجز ستة عشر جزءا.

ثم جاءت فترة الإرهاب والتنكيل، ففتحت السجون أبوابها لدعاة الإسلام للمرة الأولى وكان سيد على رأسهم، وقبل بدء التعذيب واستفحال المجازر استطاع أن ينجز خلال ثلاثة أشهر الجزء السابع عشر والثامن عشر إذ كان السجن يسمح حينذاك بالعمل.

في صيف ١٩٥٤ أفرج عن سيد مع من أفرج عنهم من المعتقلين السياسيين، وتولى إثر ذلك رئاسة تحرير صحيفة الإخوان المسلمين. وما لبث بعد ذلك بقليل أن أعيد إلى السجن مرة أخرى، وهذه المرة منع نهائيا من ممارسة الكتابة، ولم تجد «دار إحياء الكتب» وسيلة أمام هذا الإجراء التعسفي إلا أن ترفع دعوى ضد الحكومة بحجة أن سجن المؤلف سيعود عليها بالخسارة، وكان أن خضع النظام لقرار المحكمة، وهو السماح للمؤلف بممارسة التأليف داخل السجن[٢]، لكن

---

(١) المجلد ١، ص ٨.

(٢) قد يستغرب القارئ من خضوع الثورة المستبدة لحكم المحكمة، لكن الأمر واضح هو أن دكتاتورية الثورة لم تكن قد هيمنت بعد الهيمنة المطلقة، وقد كانت في مسيس الحاجة في هذه الفترة إلى من يعطف عليها.

حكومة الثورة عينت رقيبا وهو الشيخ محمد الغزالي ، وأجاز الغزالي كل ما كتبه سيد ، ولم يحذف إلا بعض الفقرات من تفسير سورة البروج التي تناول فيها الشهيد ما قاساه هو وإخوانه الدعاة من تعذيب في سجون الطغاة [١] فكتب الأجزاء الباقية في هذه الأحوال الصعبة بعد أن صدر عليه الحكم بالسجن خمسة عشر عاما وقد جاءت هذه الأجزاء معبرة خير تعبير عن عمق التجربة في حقل الدعوة ، والتوجه الحركي الناضج الفذ الحافل بإشعاعات الاستشراق الجديد لمعالم الحركية الجديدة لأجل إرساء بعث قويم لطلائع الإسلام .

*****

(١) انظر الخالدي صلاح عبد الفتاح سيد قطب الشهيد الحي ، ص ٢٤٤ ، ويذهب الأستاذ يوسف العظم في كتابه «سيد قطب حياته ومدرسته وآثاره» ص ٢٥١ إلى أن قلم الرقابة ـ ولم يسم الرقيب ـ قد حذفت مقدمة سورة الفجر ومقدمة سورة البروج التي ضمنها سيد فيما بعد كتابه «معالم في الطريق» تحت عنوان «هذا هو الطريق» .